## الفصل الثانى

# أطفال المافيا

عندما أعلنت الحكومة الإيطالية حربها على المافيا، وملاحقة كل أقطابها الكبار، كانت تدرك مسبقًا أن زعماء المافيا لن يقفون مكتوفى الأيدى، ولن يستسلموا بسهولة؛ فالتجارب السابقة تؤكد أن المافيا لم تكن فى يوم من الأيام عدوًا سهل المواجهة، وأنها تغير استراتيجيتها وخططها كلما لاح شبح الخطر. ولكنها لم تكن تتوقع أن تصبح المواجهة بينها وبين جيش من الأطفال، لا تزيد أعمارهم عن اثنتى عشرة سنة. . أطفال ينفذون خطط المافيا بتفان وإتقان منقطع النظير، ويحلمون بأن يصبحوا فى يوم من الأيام أقطاب المافيا وزعماءها الروحيين. لقد عرفت المافيا كيف تلوى ذراع الحكومة الإيطالية وتفشل خططها، باعتمادها على أطفال أبرياء، لا يرون الفخ الذى نصب لهم، وعندما يحسون بالخطر ويحاولون العودة إلى الوراء يصطادهم الرصاص.

لكن كيف تستطيع المافيا أن تتصيد هؤلاء البراعم الصغيرة؟ وكيف تحولهم إلى عبيد ينفذون الخطط بكل إحكام؟ ولماذا تقف الحكومة عاجزة عن محاربة هذه الظاهرة، التى بدأت تتفشى فى أوساط الأطفال بشكل يبعث على الخوف؟

تؤكد تحريات رجال الأمن أن السر فى اختيار هؤلاء البراعم يعود - بالدرجة الأولى - إلى سهولة وسرعة التأثير فيهم، واستعدادهم المتواصل لتنفيذ كل الأوامر؛ بغية التقرب من الأقطاب الكبار، وإلى أجورهم الهزيلة التى تكون فى الغالب عبارة عن علب الحلوى أو ملابس جديدة، وكذلك عدم اشتباه رجال الأمن فى تحركاتهم، أو مراقبتهم باستمرار، كما يحدث مع زعماء المافيا المحترفين.

ولكن هذه الأسباب لا تجسد الحقيقة كاملة؛ فالكل داخل مدينة صقلية، حيث يكثر نشاط مافيا كوزا نوسترا (Cosa Nostra) يعرف أن الفقر وصل إلى مستويات لاتطاق، وأن البطالة ارتفعت بشكل مضاعف فى السنوات الأخيرة، وأن حياة المواطنين أضحت مسلسلاً طويلاً من الحرمان والمعاناة؛ ولذلك أصبح الانخراط فى صفوف المافيا بمثابة الخيار والمخرج الوحيد لآلاف المراهقين، الذين يحلمون بمستقبل جميل، ولأطفال ينشدون لعبة إلكترونية.

الطفل «تيتو سالفاتورى» الذى يبلغ من العمر عشر سنوات، ليس سوى نموذج بسيط لآلاف النماذج، التى عرفت المافيا كيف تحولهم إلى مجرمين محترفين، فقد فتح عينيه وسط عائلة ممزقة، تصارع من أجل التخلص من الديون.. ذاق مرارة الفقر والحرمان، ومنعه حياؤه من أن يطلب من أبيه ملابس جديدة، يستقبل بها عامه الدراسى الجديد، لأنه يعرف أن والده عاطل عن العمل منذ سنوات طويلة.

أمام هذا الوضع المتأزم، أصبح تيتو مُـهَـيَّـئًا؛ لكى يقوم بأى شىء يخلصه من فقره المدقع، وبطبيعة الحال فقد عرفت المافيا كيف تستغل ظروفه الاجتماعية السيئة، واحتضنته ليصبح واحدًا من خدمها المخلصين.. واليوم يقف تيتو فى ناصية حيه يبيع الكوكايين والهيروين، تحت حراسة أصدقائه المدججين بالسلاح، وعلى الطرف الآخر يقف صديقه يراقب المكان، ويرسل إشارات معينة، إذا ما أحس بوجود شخص غريب أو حركة غريبة، وعندما يحل الظلام يتقاضى تيتو مبلغ ٥٠٠٠ ليرة.. إنه مبلغ هزيل بالطبع، ولكنه يساعد العائلة فى قضاء عدد كبير من الحاجيات الملحة.

وحتى تتمكن المافيا من استلاب عقول الأطفال الصغار.. فإنها تغدق عليهم الأموال فى بداية الأمر، وتسند إليهم مهمات سهلة، حتى تقنعهم بأن العمل بسيط للغاية ومربح بشكل كبير، وعليه فإن المهمة الأولى التى تسند لطفل

صغير، هى بيع علب السجائر المهربة، التى تدر عليه مبلغ عشرة آلاف ليرة كل شهر. وهذه الملاحظة دفعت رجال الأمن إلى طرح السؤال التالى: هل المافيا فى حاجة إلى هذه الأموال التى تجنيها من تجارة السجائر المهربة، التى تسيطر عليها بإحكام فى مدينة صقلية؟ الجواب هو لا بطبيعة الحال، ولكن المافيا تعتمد على هذه التجارة للسيطرة على المدينة، وإحكام قبضتها عليها، ففى «باليرمو» مثلاً يراقب الأطفال الذين يبيعون السجائر المهربة الأحياء التى ينتشرون فيها، ويخبرون رؤساءهم كلما دخل المنطقة رجل أمن أو شخص غريب، أو كلما حدثت حركة تثير الشكوك.

وحتى تتمكن المافيا من تنظيم عملها بإحكام.. فإنها تبث فى كل حى من هذه الأحياء عائلة معروفة بولائها للمافيا لكى تنسق عمل هؤلاء الأطفال وتزودهم بالخطط والبرامج.

يقول «انسلمو كلاسبورا» مدير مجلة «لورا» المناهضة للمافيا فى هذا الصدد: «إن هؤلاء الأطفال هم عيون المافيا التى تبصر كل شىء.. إنهم يعرفون كل شىء، ويراقبون كل شىء، وهم أيضًا رسل للتجار، يخبرونهم بحجم الإتاوة التى يجب عليهم دفعها مقابل الحماية التى تقدمها لهم المافيا، ويشرفون على عملية دفع الأتاوى إلى كوزا نوسترا، ولذلك يطلق عليهم فى باليرمو لقب «رسل التهديد والموت».

وحتى تصبح لهؤلاء الأطفال الصغار كلمة مسموعة.. فإن كوزا نوسترا تزودهم بأشخاص مدججين بالسلاح يرافقونهم كالظل، ويضمنون حمايتهم فى كل وقت، وكمثال على ذلك.. فقد حدث ذات مرة أن تذمر أحد البقالين أمام زعيم المنطقة، من وجود طفل يبيع السجائر بنصف الثمن الذى يبيع به للزبائن، فما كان من زعيم المنطقة سوى أن أمر أتباعه بتعذيب ابن البقال أمام مرأى ومسمع من سكان الحى؛ ليدرك الجميع أن معارضة وعصيان أوامر المافيا يمكن أن تقود إلى القبر.

عندما تنتهى مرحلة بيع السجائر المهربة، يصبح الطفل بائعًا محترفًا، تسند إليه مهمة بيع المخدرات مقابل مبالغ أكبر بكثير من تلك التى كان يتقاضاها فى المرحلة الأولى، ووسط ظروف أسهل وحماية أكبر؛ ففى كل مساء يحمل هؤلاء الأطفال ـ الضحايا، أكياسًا مشحونة بالكوكايين والحشيش وأقراص النشوة، ثم يجتمعون وسط حى فقير فى انتظار الزبائن، الذين لا يتأخرون فى دفع مبلغ ١٠ آلاف ليرة مقابل كيس صغير. أما الآباء.. فيجلسون فوق سطوح المنازل، يراقبون المنطقة بحذر شديد، وعندما يشاهدون دوريات الأمن تجوب المكان، يطلقون إشارات معينة، يختفى على أثرها بائعو المخدرات، ويظهر فوج جديد من الأطفال يلعبون كرة القدم، ويعم المكان هدوء شديد.

لكن هذه المرحلة لا تكون محمودة العواقب فى جميع الحالات، فغالبًا ما يتحول الطفل البائع إلى مدمن المخدرات، ويصبح همه الوحيد هو مضاعفة جهده لكسب المال، الذى يمكنه من الحصول على جرعته اليومية من الكوكايين، والقلة القليلة هى التى تعرف كيف تسير أعمالها دون الوقوع فى مطب الإدمان، وبالتالى تنال إعجاب أقطاب المافيا.

يقول النائب «فرانسيسكو ماترانجا»، أحد أفراد مجموعة (Squadra Volante) المخصصة لمحاربة المخدرات: «عندما يصل الطفل إلى المرحلة الثانية، ويثبت جدارته فى بيع المخدرات، تكلفه المافيا بتوزيع كميات أكبر خارج المدينة، التى يقطنها؛ حتى تنمو وتتطور كفاءته فى هذا المضمار».

أما الأطفال الذين يزاولون السرقة.. فإن المافيا لا تهتم بهم ولا تحبذ وجودهم بين صفوفها؛ فالسرقة لا تدخل فى جدول أعمال المافيا. ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر أن جانبًا من مدخول السرقات ينتهى فى جيوب كبار أعضاء المافيا.. فلكى يقوم اللص بمزاولة سرقاته فى منطقة ما، عليه أن يأخذ إذنًا من زعيم المنطقة، الذى يفرض عليه دفع إتاوة معينة عن كل عملية يقوم بها، وعليه

أيضًا أن يكون حذرًا فى انتقاء ضحاياه؛ فقد حدث فى نهاية السبعينيات أن قام أربعة أطفال بسرقة حقيبة «سانتا باولا»، زوجة أكبر زعماء المافيا فى مدينة «كاتانيا»، ولم تمض سوى أيام قليلة؛ حتى عثر السكان على جثث الأطفال الذين لم تتجاوز أعمارهم ١٦ سنة، وقد أعدموا شنقًا، ومنذ ذلك التاريخ بدأ اللصوص الصغار يستحضرون هذا الحادث عند القيام بأى عملية.

يقول «انسلمو كالاسبورا» فى هذا الصدد: «يعتبر الشنق من بين وسائل الانتقام المفضلة عند المافيا، ففى كثير من الأحيان يعثر رجال الأمن على جثث الأطفال اللصوص، داخل الباب الخلفى لإحدى السيارات، وقد تعرضوا لعمليات شنق وحشية، نتيجة قيامهم بأعمال، أثارت غضب زعماء المافيا، أو نتيجة تعرضهم للتجار الذين يدفعون إتاوة للمافيا مقابل حمايتهم».

ويؤكد الشاب «ماسيمو» البالغ من العمر ١٦ سنة، والذى يعمل مع عصابة محترفة منذ سن الثامنة، هذه الحقيقة، معلنًا أنه كان يتلقى قائمة باسم المحلات الخاضعة لحماية المافيا، والتى لا يجب الاقتراب منها، وأن العصابات كانت دائمًا تطلب الإذن من زعيم المنطقة لمهاجمة بنك يقع فى منطقته، على أساس أن تنال المافيا جانبًا مهمًّا من الغنيمة.

لقد بدأت المافيا فى الفترات الأخيرة تتساهل مع هؤلاء الأطفال اللصوص، وترخص لهم بالقيام بعمليات كبيرة ومثمرة، ولكن هذا التساهل ليس مردّه المراقبة المستمرة المفروضة على كبار زعماء المافيا، كما قد يتوهم بعض الناس، بل مردّه إلى طبيعة الحرب التى تخوضها المافيا مع رجال الأمن، والتى تهدف فى المقام الأول إلى إنهاك وتفتيت جهود الشرطة فى القضاء على مجموعات كثيرة ومتفرقة من اللصوص، الذين لا يتوقفون عن عمليات السرقة.

وبهذه الخطة المحكمة تستطيع مافيا كوزا نوسترا القيام بأعمالها بكل هدوء،

يقول القاضى «فالكونى» فى كتابه «كوزا نوسترا»، الذى ألفه مع «مارسيلى بادوفانى»:

«لقد كان أعضاء المافيا من قبل يمنحون اللصوص عمليات قليلة جدًا، أما اليوم فقد تغيرت الأوضاع، وأصبحت المافيا تبارك خطواتهم، وتمنح الضوء الأخضر للمنحرفين والمشردين واللصوص المسلحين للقيام بأعمالهم التخريبية فى المدن الكبرى ك «باليرمو» و«كاتانيا»؛ من أجل عرقلة عمل الشرطة، وهذه الاستراتيجية المحكمة تبدو أكثر فاعلية فى «صقلية» و«باليرمو» على وجه الخصوص، ففى الوقت الذى تقوم فيه دوائر الأمن بلعبة القط والفأر مع شكل اللصوص والمنحرفين، يظل المجال فسيحًا أمام مافيا «كوزا نوسترا» للقيام بعملياتها الكبيرة، لدرجة يصبح من المتعذر معها معرفة أين تنتهى أعمال المنحرفين، وأين تبتدئ كوزا نوسترا.

هل تستطيع هذه البراعم الصغيرة أن تتوب وتقلع عن التعامل مع المافيا؟ الجواب هو لا بطبيعة الحال؛ لأن المثل الشائع داخل صفوف المافيا يقول: «عندما ينضم عضو جديد للمافيا.. فإنه ينضم بإراقة الدماء، ولا يمكن أن يخرج إلا بإراقة الدماء».. وتفسير ذلك أن الطفل الذى ينضم للمافيا، لابد أن يقوم بطقوس سرية معينة، تعتمد على إحداث جرح بسيط فى إصبع اليد، التى يستخدمها الطفل بكثرة، ومسح صورة إحدى القديسات بالدم الذى يخرج من إصبعه، ثم حرق الصورة بين يديه، مرددًا قسمًا يعلن فيه أنه مستعد لكى يهب نفسه لخدمة المافيا طول العمر! لكن السبب الرئيسى الذى يجعل هؤلاء الأطفال الصغار يطردون فكرة التوبة من رؤوسهم، هو خوفهم الكبير من المافيا وبطشها؛ فالتجارب الكثيرة السابقة تؤكد لهم بوضوح أن رحلة العودة للخلف، هى رحلة محفوفة بالمخاطر، وتقود إلى القبر بكل تأكيد.

لقد أدرك زعماء كوزا نوسترا أن العنف والإرهاب لهما مفعولهما السحرى على السكان، وأن القتل والتخويف يضمنان خوف المواطنين وسكوتهم إلى

الأبد. ولتحقيق ذلك لا تتردد المافيا فى التنكيل بجثث الضحايا لأتفه الأسباب، وإذابة الخصوم بواسطة مواد كيمياوية حارقة.. ليس هذا فحسب، بل إنها تسعى باستمرار للبحث عن القتلة المحترفين؛ لتضمهم إلى صفوفها، ولتزيد من جرعة التخويف والترهيب، وتضمن سكوت السكان الأبدى.

لكن هذا الوضع لم يؤد إلى تخويف السكان فحسب، بل خلف مجتمعًا منخورًا يحكمه العنف ويسيره قانون الغاب. ففى مدينة «كاتانيا» التى لا يزيد سكانها عن ٣٧٠ ألف نسمة، ارتفع معدل الجريمة ليحتل الصدارة فى إيطاليا كلها، وتضاعفت عمليات القتل، وأصبح عدد الذين تتم تصفيتهم كل سنة أكثر من مائة ضحية، وهو رقم كبير لا نجده حتى فى المدن الإيطالية الكبيرة، مثل: «باليرمو» و«روما». أما عدد الأطفال الذين يتم توقيفهم فى كل سنة.. فقد ارتفع بشكل ملحوظ، وأصبح يتجاوز ٣٠٠ طفل.

هذا الوضع يؤكد حقيقة واحدة، هى أن الدولة لم تعد حاضرة بثقلها لتتحكم فى الوضع بشكل جيد، وكل الدلائل تشير إلى أن عائلات المافيا هى التى تدير كل شىء، وهى التى تسير المدينة بالشكل الذى يريحها، وكمثال على ذلك: دوريات الأمن، التى تخاف أن تدخل أو تجوب المناطق الخاضعة لنفوذ المافيا.. وعندما يهاجم جهاز Squadra Volante (البوليس) المنطقة أو يطارد عضوًا من أعضاء المافيا، فإن الرصاص يهاجمه من كل جانب، والحصيلة تكون فى أغلب الأحيان خسائر مادية فادحة، وبحرًا من الدماء. فى هذه المدينة الصغيرة يقوم هؤلاء المراهقون الذين يطلق عليهم لقب «القتلة الصغار» بنشر الرعب فى نفوس السكان؛ فهم لا يتورعون عن قتل رجل طاعن فى السن أمام أعين الجميع، من أجل مبلغ زهيد من المال.

يقول «باولو اتاردو» مدير سجن الأحداث بمدينة «كاتانيا»: «إن سن هؤلاء القتلة المحترفين لا تزيد عن ١٦ سنة فى الغالب، والعقد الذى يبرمونه مع المافيا لا يتجاوز ١٥٠ ألف ليرة، ولكن فى الحقيقة لا نملك معلومات كافية عن

تحركاتهم، وعلى الرغم من أن رجال الأمن مقتنعون بأن أعدادهم كبيرة جدًا، إلا أنهم لم يتمكنوا من إلقاء القبض على أيٍّ منهم. هؤلاء الأطفال يهاجمون المحلات التجارية والأشخاص، مدججين بالسكاكين فى بداية الأمر، ثم ينتقلون بعد ذلك إلى حمل مسدسات حقيقية، ومسدسات مصنوعة من البلاستيك. وعندما يتم توقيفهم من طرف رجال الأمن، فإنهم يتخلصون من المسدسات الحقيقية ويحتفظون بالمسدسات البلاستيكية فقط».

هل يمكن تحديد عدد الأطفال الذين يعملون لحساب مافيا «كوزا نوسترا»؟ من الصعب العثور على جواب محدد يشفى الغليل؛ ففى «باليرمو» على سبيل المثال: يعتقد رجال الأمن أن هناك أكثر من ألف طفل يتاجرون فى السجائر المهربة. أما الأطفال المخبرون والقتلة المحترفون.. فإن أعدادهم هائلة، ويصعب على رجال الأمن إعطاء رقم محدد، وإن كان عدد الأحداث الذين يقعون فى قبضة العدالة يتجاوز المئات. ولكن التغييرات التى عرفها القانون الجنائى لسنة ١٩٨٩، والتى تقضى بتخفيف العقوبة على الأطفال الصغار، وتجنيبهم عقوبة الحبس، جعلت أعضاء المافيا يستغلون هذا التساهل، ويبحثون عن أطفال جدد، طالما أن الطفل لا يكلف المافيا أموالاً طائلة، ولا يمكث فى السجن فترات طويلة.

يقول الصحافى «بييربيرنى»: «لكى نعرف سبب ارتماء الأطفال الأبرياء فى أحضان كوزا نوسترا، التى تشتهر بعنفها وقسوتها، علينا أن نخوض فى قلب واقع صقلية اليومى؛ حيث يولد الطفل فقيرًا، لا يجد أمامه سوى خيارين لا ثالث لهما: فهناك أحضان الدولة المليئة بالرشوة والفوضى والضعف، والتى لا تمنح سوى الفقر والبطالة، وهناك من جهة أخرى «الكوزا نوسترا» المنظمة الصارمة القوية، التى تمنح وظائف وأجورًا جيدة، والتى تعدّ حلمًا يقتلع الأطفال من المهد».

هؤلاء الأطفال يخضعون بعد انضمامهم للمافيا إلى اختبارات صارمة، تقوى بداخلهم حب التملك، والاندفاع نحو السلطة، والتفانى فى سبيل المنظمة، وكتمان الأسرار، وعدم إفشاء المعلومات للغرباء.

فى هذه المناطق تحكم المافيا سيطرتها على كل شىء.. تسيِّر كل شىء، وتبعث بمزيد من الهلع فى نفوس السكان. وفى الوقت الذى تعد فيه دوائر الأمن الخطط والاستراتيجيات لمحاربة هذا الغول الذى ينخر فى المجتمع الإيطالى، لايزال مئات الرجال والنساء وآلاف الأطفال يخدمون بإخلاص كبير عناصر المافيا، التى تمنحهم المال والعمل.. ويتهكمون من تصريحات الحكومة، التى لا تمنحهم سوى الوعود المنمقة والخطب المزوقة!

* * *